

التعليم وتكوين النخب الثقافية والسياسية في الجزائر: مرحلة (1830-1954)

Education in Algeria and the formation of cultural and political elites: (1830-1954)

د. مخنفر حفيظة*

المعهد الوطني للبحث في التربية

(الجزائر العاصمة)

Hafidha_19@hotmail.fr

تاريخ الاستلام: 2022/01/20 القبول: 2022/07/22

النشر: 2022/11/16

ملخص:

تهدف الورقة البحثية إلى الكشف عن دور التعليم في تشكيل النواة الأولى لنماذج النخب السياسية والثقافية الفاعلة في الجزائر خلال الفترة الممتدة بين سنتي (1830) و(1954)، لما لذلك من أهمية في فهم التحولات السياسية التي عرفتها الجزائر بعد الاستقلال إلى يومنا هذا، لذلك سيتم تبين: أولاً دور السياسة التعليمية الفرنسية في صناعة النخب الفرنكوفونية الموالية لثقافتها والمتشعبة بقيم حضارتها؛ ثم تبين دور التعليم العربي أثناء الاستعمار في تشكيل النخب المعربة والتي كانت تؤمن بالأصول العربية والإسلامية للشعب الجزائري؛ وتوصل البحث إلى عرض أهم نماذج النخب الجزائرية في الفترة (1830 - 1954) من حيث النشأة التكوينية والتوجهات الأيديولوجية والفكرية؛ وبالتحديد النخب الفرنكوفونية، النخب البربرية، النخب الوطنية، النخب المعربة، و"مالك بن نبي" باعتباره لوحده يشكل تيار فكري مختلف تماماً عن باقي النخب، وسيتم توضيح المنهج التاريخي.

الكلمات المفتاحية: نخب؛ سياسة تعليمية؛ مدرسة جزائرية؛ نخب معربة؛ نخب مفرنسة.

Abstract

The main objective of the paper is to present the role of the educational policy since 1830 to 1954 in forming the elites models in Algeria; and The importance of this in understanding the political transformations in contemporary Algeria. Therefore we going to demonstrate the role French education policy in making Algerian elites; Also the Arabic education during colonization and its role in making Aabic elites; so finally as results we present the models of the Algerian elites in the period (1830 - 1954); there origins and there orientations; specifically the Francophone elites, Berber elites, National elites, Arabized elites, and "Malik bin Nabi" who is alone an intellectual movement different from the rest of the other elites. The study will use the historical method.

KeyWords: Elites ; Education policy ; Algerian Education; francophone ; Arabophone.

المقدمة:

يكتسي النسق التربوي أهمية بالغة ضمن المجتمع؛ لدوره المزدوج إذ ينقل ويؤرث القيم والمعارف والتراث من جيل إلى جيل آخر، فيحافظ على ثقافته وهويته من لغة ودين وقيم، فضلاً عن أنه يساعد في تغيير المحيط الاجتماعي والسياسي والاقتصادي. وهذا واحد من الباحثين التربويين أوليفي روبر ينظر للتربية باعتبارها عملية وفعل اجتماعي؛ يشكل التعليم أهم استراتيجياتها؛ ذلك "أنها العمل الذي يُمكن كائناً إنسانياً أن ينمي استعداداته الجسدية والفكرية، كما ينمي مشاعره الاجتماعية والجمالية والأخلاقية في سبيل إنجاز مهمته كإنسان، وهي أيضاً نتيجة ذلك العمل ... فالتربية هي مجموع السرورات والأساليب التي تسمح للطفل البشري بالوصول إلى حالة الثقافة باعتبارها ما يميز الإنسان عن الحيوان". (روبول، 2002، صفحة 31) بذلك تكون التربية هي التي تحول الإنسان من كائن حيوي إلى إنسان ذو ثقافة؛ والتعليم واحد من استراتيجيات التربية؛ يصنع ثقافة الأجيال وينقلها عبر التاريخ.

كذلك التعليم ليس في حقيقته وجوهره تلك الدروس التي يأخذها الطالب في المدرسة، بل هو قبل ذلك فلسفة كاملة، تسهم في بنائها وتحقيقها كل المواد الدراسية والمعارف والممارسات التي تبدأ من مرحلة الطفولة، مروراً بكل موارده الثقافية والعلمية، وانتهاءً بمجموع الخبرات المتراكمة التي يتحصل عليها، وينقلها إلى الأجيال من بعده. (لوصيف، 2014، صفحة 227) فبالتربية والتعليم يمكن لأي دولة أن تعيد إنتاج ثقافتها.

وكما هو معروف عند الدارسين لتاريخ الجزائر فإن السياسة الاستعمارية الفرنسية كانت مدركة تمام الإدراك لأهمية التعليم كأداة استعمارية تمكنها من إخضاع المجتمع الجزائري؛ أكثر مما تمكنها الجيوش بالقوة والسلاح، خاصة وأن المصادر التاريخية تشير إلى أن فرنسا كانت جد متمسكة بالجزائر وتعتبرها أهم مستعمرة من ضمن كل مستعمراتها في إفريقيا؛ لهذا سطرت سياسة تعليمية خاصة بأبناء الجزائر تخدم مصالحها على المدى القريب والبعيد وتحافظ على مصالحها فيها، وفعلاً كان لها ذلك طالما أن المشهد السياسي في الجزائر المستقلة هو خير دليل على نجاح هذه السياسة التدميرية، إذ يوحي هذا المشهد بوجود انقسام بين النخب الجزائرية بين من هي متشعبة بالثقافة الفرنسية روحاً وفكراً، وبين من هي متشعبة بالثقافة العربية الإسلامية روحاً وفكراً كذلك، فالأولى خريجة المدارس المفرنسة، والثانية خريجة الكتاتيب والجمعيات الإسلامية التي تحدث آنذاك هذه السياسة وعملت على حماية القيم الوطنية الدينية التي تميز المجتمع الجزائري المحافظ.

سعى الاستعمار الفرنسي من خلال سياسته التعليمية إلى ترسيخ الثقافة والأفكار الفرونكفونية في عقول الأجيال المتعلمة؛ إذا حارب جميع الفعاليات الفكرية والتربوية والتعليمية العربية منها والإسلامية، وكانت عمليات التبشير الفرنسية خلال العقود الأولى من الاحتلال مكثفة جداً بقيادة "الأب لافيغري" الذي بدأ بإنشاء المدارس والتعليم باللغة الفرنسية، ولعل في مقدمة أهداف الاستعمار الفرنسي التي سعى إلى تحقيقها في الجزائر هي ممارسة

سياسة التجهيل، ومحاصرة التعليم الحر، في حين كانت نسبة ضئيلة من المحظوظين تتعلم في المدارس الفرنسية في المراحل الأولى للتعليم، ولا يرقى إلى التعليم العالي إلا من يثبت ولاؤهم لفرنسا. وقد ارتفعت نسبة التجهيل والامية إلى درجة وصلت فيها في نهاية عهد الاستعمار إلى (98%) من السكان. (الزبيدي، 2010، صفحة 195) رغم أن الوضع لم يكن كذلك قبل مجيء الاحتلال.

فهذا "فيلهلم شيمير" الذي زار الجزائر في شهر ديسمبر (1831)، وأقام فيها حوالي عشرة أشهر يقول: "لقد بحثت قصداً عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة، غير أنني لم أعثر عليه في حين أنني وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا، فقلما يصادف المرء هناك من يستطيع القراءة بطلاقة، وذلك ما دعا الحكومة الفرنسية إلى استخدامهم في الوظائف العمومية؛ أما الفرنسيون الذين يتكلمون العربية فلا وجود لهم إلا نادراً جداً" (دودو، 1975، صفحة 13).

فقد عمل المستعمر -قصص التمكين لنفسه- عن طريق سياسته التعليمية على تكوين نخب موالية له في الفكر، والنتيجة هي أن خرج للوجود نماذج من النخب الثقافية والسياسية، التي كان ولازال لها تأثير واضح في صياغة تاريخ الجزائر إلى يومنا هذا، وارتكازا على هذه الرؤية في النظر إلى الأمور؛ تحاول الورقة البحثية تسليط الضوء على الموضوع من هذه الزاوية؛ بالإجابة على تساؤل رئيسي مفاده: كيف كان للتعليم في الجزائر خلال المرحلة الممتدة من سنة (1830) إلى غاية سنة (1954) دور في تشكيل النواة الأولى للنخب الجزائرية بخصائص ثقافية سياسية معينة؛ فرضتها حتمية تاريخية مرتبطة بالزمان والمكان؟ وستتم الإجابة على هذا التساؤل من خلال الإجابة على الأسئلة الفرعية الموالية:

- كيف كان للسياسة التعليمية الفرنسية دور في صناعة النخب الثقافية والسياسية في الجزائر؟.
- كيف كان للتعليم العربي أثناء الاستعمار دور في تشكيل النخب في الجزائر؟.
- وكنتيجة للبحث ما هي نماذج النخب التي تشكلت آنذاك وما هي توجهاتها السياسية والثقافية، وكيف تشكلت النخب الحديثة في الجزائر المستقلة بتوجهاتها السياسية.
- ولالإجابة على هذه التساؤلات سلكت الدراسة المنهج التاريخي كمدخل منهجي.

I. السياسة التعليمية الفرنسية وصناعة النخب

أدرك المستعمر منذ البدايات الأولى لوجوده في الجزائر أهمية وجود فئة من أبناء الأهالي تساعد على التغلغل في أوساط الشعب، لشدة الممانعة الثقافية التي أبدتها المجتمع الجزائري، والمقاومة العسكرية التي تجلت في المقاومات الشعبية آنذاك، وقد وجدت فرنسا التعليم أفضل وسيلة لإزالة الفروق الثقافية بينها وبين الشعب الجزائري، وكان تعليم أبناء الأهالي هو المدخل الملائم لذلك.

ويؤكد ذلك "عبد القادر حلوش" بقوله أن المهمة الحقيقية للمدرسة الفرنسية؛ كانت هي "خلق أو تكوين" طبقة وسطاء بين الجزائريين والمستعمر؛ التي كانت يشكل انعدامها قلقاً للإدارة الفرنسية، لأن الفرنسيين لا يستطيعون كسب ثقة الشعب الجزائري بالقدر الذي يستطيع هؤلاء المثقفون، باعتبارهم جزء من هذا الشعب،

ولضمان استمرارية أداء أولائك الوسطاء لواجبهم "الاستعماري" يجب حسب رأي الأوروبيين أن تكون: "الدراسات قوية بهدف محاربة الأعداء الذين يعترضونها فيما بعد، ويجب أن نركز كل الجهود لجعل هؤلاء السكان مشاهدين لنا، متحمسين لحضارتنا، أو على الأقل لجعلهم يرغبون في التقرب إلينا شعورا وفكرا". (حلوش، 2010، صفحة 259) وللعمل على تحقيق هذا الهدف اهتم المختل الفرنسي بخلق سياسة تعليمية فرنسية صبت جل اهتمامها بالمناهج والمدرسين، في مختلف الأطوار التعليمية.

فقد أولت السياسة التعليمية الفرنسية موضوع تكوين نخبة من المدرسين فرنسيين وأهالي اهتمام كبير. كان المدرس يتلقى تعليما خاصا؛ متكيفا مع تربية الأهالي، ويتمتع بمكانة معتبرة لدى السلطات العمومية وموضع ثقة؛ فلم يكن أستاذ مدرسة فحسب، وإنما بناء ونجارا وطيبيا-ممرضا، وغيرها من المهن القريبة من المجتمع، يعلم القراءة والكتابة والحساب ويقدم دروسا في الأخلاق والتاريخ والجغرافيا والتعليم، كان يدرس الصحة والزراعة وسكرتيرا بالبلدية وكاتبا عاما، وكانت دار "مصطفى" للمعلمين التي نقلت إلى بوزريعة سنة (1888) مخصصة لتكوين هؤلاء المدرسين الكولونياليين، وقد أنشأت دور أخرى فيما بعد سنة (1959)، بلغ عددها ثمانية بقسنطينة ووهران (بن قينة، 2000، صفحة 231)

كما كان يوجد منذ سنة (1891) "فرع أهلي" تحول لاحقا إلى "الفرع الخاص بتكليف المدرسين الفرنسيين مع تعليم الأهالي"، وكونَ فرع مخصص للأهالي (800) مدرس أهلي معظمهم قبائليون، وقد كان هؤلاء المدرسون محل تقدير خاص؛ ويتحدث الأستاذ إيبازين Ibazizen عن أبيه الذي كان أول طالب أستاذ قبائلي بالمدرسة الفرنسية الأولى لبلاد القبائل "... فقد تملكه حب الثقافة الفرنسية وقوتها المادية وإشعاعها الفكري... متأثرا بأساتذته الأوائل وتعليمهم له. (ريسليز، 2016، صفحة 232) وكان اهتمام فرنسا بالمعلمين من باب أهمية المدرس في تعليم الناشئة، لأن المدرس سيكون القدوة الأولى أمام طلابه.

ومن بين المدارس التي أسستها فرنسا؛ وكان لها دور بارز في صناعة النخب الجزائرية؛ نجد ما يسمى "بالمدارس العربية الفرنسية" في سنوات (1836-1850) - وقبلها محاولات بسيطة حوالي (1833) لأبناء الكولون - لاستقطاب الجزائريين بتعليم مزدوج (عربي/فرنسي) لكن سرعان ما عوضت هذه المدارس في ذات السنة بنموذج تعليمي آخر؛ سنته القوانين الفرنسية المتعلقة بإجبارية التعليم العمومي المفرنس (بن قينة، 2000، صفحة 25). وأصبحت في عام (1870) تعمل (36) مدرسة ابتدائية عربية فرنسية (1300) تلميذ ومعهدان عريان-فرنسيان وثلاث مدارس دينية إسلامية، ولكن الجمهوريين الفرنسيين المعارضين للتعليم في الجزائر توصّلوا إلى إغلاقها وتركوا المدارس الدينية تضعف فلم يبقى في عام (1882) سوى (16) مدرسة ابتدائية، ففاضل Jeanmaire من أجل تنمية المدرسة الأهلية، غير أن أولياء التلاميذ المسلمين ظلوا زمنا طويلا متمردين في إرسال أولادهم إلى المدارس الحكومية ولم يتغير ذلك إلا بعد الحرب العالمية الأولى. (آجبرون، 1982، الصفحات 113 - 114) لم يرسل الجزائريين أبناءهم خوفا عليهم من التخلي عن دينهم والذوبان في المجتمع الفرنسي، وبالتالي فشل التعليم الفرنسي في بدايته الأولى في استقطاب عامة الشعب الجزائري.

ثم تبع فشل المدارس السابقة الذكر، مشروع "المدارس العربية الإسلامية" أو (المدارس الشرعية) التي أنشأت بمرسوم صادر في 1850/09/30؛ وتتلخص مهمتها في إعداد موظفين في الشؤون الدينية والقضائية والإدارية، ويصبح المتخرجون منها همزة وصل بين المحتلين والمواطنين، ويقومون بالنيابة عن الإدارة الاستعمارية في شؤون المواطنين في المنازعات القضائية والدينية، ووزعت هذه المدارس على ثلاث جهات من الوطن الأولى في غربه بتلمسان، والثانية في وسطه بالمدينة؛ بعد تسع سنوات نقل مقرها إلى العاصمة سنة (1958)؛ أما الثالثة في الشرق بقسنطينة. (بن قينة، 2000، الصفحات 26 - 27) بهدف استقطاب الطلبة الذين كانوا يتجهون للدراسة في الجامعات الأجنبية؛ خصوصا جامعة القرويين بالمغرب والزيوتنة بتونس؛ بغرض الحد من تأثيرهم بتيارات النهضة الإسلامية التي بدأت تلوح في الأفق آنذاك. لكن هذه المدارس ستتأثر بالتطورات التي عرفتها الجزائر فيما بعد، وتحولت إلى ثانويات سنة (1944) بمقتضى قانون المدارس الثلاث الصادر سنة (1951). (بن داود، 2017/2016، صفحة 54)

ومن هذه المدارس العربية الإسلامية تخرج "مالك بن نبي" الذي أصبح يمثل مدرسة فكرية لوحده، بفضل بعض أساتذته المسلمين واحتكاكه بمحيط العلامة عبد الحميد بن باديس، كذلك تخرجت منها فئة من النخب الذين أخذوا من الثقافة العربية الإسلامية، وشكلوا فئة أتيحت لها فرصة نشر التراث القديم ضمن السياسة الفرنسية المتبعة مع أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، ومن هذه الفئة الشيخ "عبد القادر المجاوي" (1848-1914)، و"محمد أبو القاسم الحفناوي" (1852-1942)، و"محمد بن أبي شنب" (1869-1929)، الذي ألف بالعربية والفرنسية وأُنجز مجموعة كبيرة من البحوث. (بن قينة، 2000، صفحة 26، 32)

لكن فرنسا أدركت خطورة المدارس العربية الإسلامية؛ ما جعلها تتراجع عنها وحولتها إلى مدارس "التعليم الثانوي العربي الرسمي"؛ الذي ساهم بدوره في تكوين عدد من النخب، وكان له مدرستان إحداها في تلمسان والثانية في قسنطينة، وكلتاها تُعَلِّمُ الفقه والأدب العربي واللغة الفرنسية والتاريخ وبعض المواد العلمية، والناجحون من هذه المدرسة يواصلون تعليمهم في المدرسة الثعالبية بالجزائر العاصمة وهي مدرسة عليا تغير أسمها سنة (1951) فأصبحت تدعى "الكوليج الفرنسي الإسلامي" ومنها يتخرج القضاة الشرعيون ووكلاء المحاكم الشرعية وكذلك المدرسون الرسميون. كما أن الناجحين في الامتحان النهائي في هذه المدرسة العليا يمكنهم أن يدخلوا معهد الدراسات العربية التابعة للجامعة حيث يقضون سنتين يحصلون بعدها على دبلوم، وحوالي (1953) خصصت الثعالبية مدرسة للبنات وانتقل الطلبة إلى الثانوية الفرنسية-الإسلامية الجديدة في بن عكنون التي تدعى اليوم عمارة رشيد. (أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، 2007، صفحة 55)

كما كانت السياسة التعليمية الفرنسية تخصص منحة لنخبة من التعليم الثانوي، يراد بها صناعة نخبة تكون "وسيطا ثقافيا وسياسيا" لدى السلطات الكولونيالية، وتساهم من خلال نشاطها داخل المجتمع التقليدي في خلق ثقافة الرضا والقبول بالوجود الفرنسي ونشر قيمه الثقافية؛ وقد كُوِّنت النخبة القبائلية الفرنكوفونية أو مزدوجة اللغة في الأوساط الشعبية البسيطة، وذلك بفضل منحة تقدمها السلطات العمومية التي وجدت في ذلك أكثر الوسائل

فعالية لانتقاء الأهالي المراد وصولهم إلى قمة الهرم الاجتماعي، وكان مرسوم صادر سنة (1886) يُمكن فعلا السلطات العمومية من تجاوز شروط الاستحقاق الأكاديمي والضرورة المالية، للموافقة بلا امتحان "على عائلات قدمت خدمات منوه بها لفرنسا" عشية الحرب العالمية الأولى، كان الحاصلين على منح الثانويات أبناء لأغاوات أو قياد؛ وتم رفع القرض الموجه والمخصص لمنح التعليم الثانوي، بشكل كبير في سنة (1904)، بهدف تقوية "برجوازية محافظة" تحت حكم "جونار" (1903-1911)، ساهمت المنح بعد الحرب في مكافأة كل المساعدين الأهالي الموالين من باشاغات وأغاوات وقياد وعسكريين، ورجالا للقضاء والشعائر الإسلامية ومترجمين ومدرسين ومساعدين طبيين. (ريسليير، 2016، الصفحات 234 - 235)

أما بالنسبة للتعليم العالي ودوره في تكوين النخب، مثّلته جامعة واحدة هي جامعة الجزائر كانت تضم أربع كليات (الحقوق، والآداب، والطب والصيدلة، والعلوم) وفيها معهد للدراسات العربية حديث العهد؛ كانت لا تضم سوى حوالي 4130 طالب معظمهم من الأوربيين لأن شروط القبول تعجيزية وعنصرية. (أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، 2007، صفحة 52)

كما كانت جامعة الجزائر التي ترجع نواتها إلى إنشاء المدارس العليا سنة (1880) قد ظهرت إلى الوجود سنة (1909)، وتطورت بسرعة حتى أصبح الفرنسيون يسمونها (السربون الإفريقية) وكانوا يعتبرونها الجامعة الفرنسية الثالثة لارتفاع مستواها التعليمي، ومن أساتذتها في العلوم الاجتماعية "ماسكري" و"باصيه" و"موران" و"فانيان"، وقد تفرعت عنها معاهد منها معهد البحوث الصحراوية، معهد الدراسات الشرقية، معهد الدراسات القانونية. (أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، 1998، الصفحات 100 - 101)

كما أنشئت فرنسا في سنة (1879) بالجزائر مدارس عليا للحقوق والآداب والعلوم، لا تمنح شهادة الدولة للجزائريين لأسباب سياسية، وحسب ج.ك.فان Vatin فقد كانت تُخفي وراء الخطاب الرسمي، رغبة الجامعيين والسياسيين بفرنسا في تجنب الموافقة على استقلالية التعليم العالي الجزائري، وذلك لإجبار الشباب الراغبين في مواصلة تعليمهم العالي على الالتحاق بفرنسا. (ريسليير، 2016، الصفحات 236 - 237)

كما كانت الجامعة والبحث هما الأساس الإيديولوجي للحضور الفرنسي وجهاز للتحكم، وكان التعليم العالي تابع لوزارة التربية الوطنية التي تختار المحاضرات وتعين الأساتذة وتقدم القروض، كما كان يبدو عاديا أن لا تقوم فرنسا بالتشجيع على إنتاج علم قد لا يخدم مصالحها؛ كما صرح "أوغسطين برنار" Augustin Bernard أستاذ بالسربون والممثل لـ "مدرسة الجزائر" بقوله: التعليم العالي كان جهازا إيديولوجيا للتحكم، تستعمله الإيديولوجيا المهيمنة لنقل شرعية قوتها". (ريسليير، 2016، صفحة 39، 41) ومن هذه الجامعة تخرج جيل من الحركة الوطنية مثل "فرحات عباس"، "وابن جلول"، "رضا مالك"، "مصطفى الأشرف"، وهذا معناه نجاح التعليم الفرنسي في صنع نخب جزائرية. (بن قينة، 2000، الصفحات 29 - 30) منها ما توافق مع الثقافة الفرنسية، ومنها من ناقضتها وعارضتها بشدة؛ نخب وطنية وهي نفسها التي دافعت على استقلال الجزائر كفرحات عباس -مثلاً- رائد الحركة الوطنية.

II. التعليم العربي ودوره في صناعة النخب

يقول "أبو القاسم سعد الله" أن التعليم العربي الحر والانبعث الإسلامي كان مضطهدا في الجزائر بحسب شهادة "محمود بوزوزو"، فالتعليم كان قائم على كاهل الشعب، ولا يتعدى التعليم الابتدائي، وله برنامج بسيط يشمل قواعد الدين وقواعد اللغة وبعض الجغرافيا والتاريخ الإسلامي، والتعليم العربي الرسمي ليس له مدارس خاصة به، كما أن اللغة العربية لا تعلم في المدارس الابتدائية الفرنسية، أما المدرسون فهم عادة موظفون رسميون معينون من

قبل إدارة التعليم مع مباركة الحاكم العام، عددهم حوالي (50) موزعين على المساجد مهمتهم إقراء من يرغب في علوم الدين واللغة والتوحيد والفقه والنحو، وليس لهم برنامج مسطر. (أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، 2007، الصفحات 54 - 55)

التعليم الديني لم يكن مقبولا، وباسم سياسة الدمج ثم العلمنة حددت السياسة الفرنسية المدارس القرآنية بدقة، وروقت مدارس الزوايا وأغلقت أو أزججت، ولهذا السبب توقف الانضمام بصورة عادية إلى طبقة العلماء ونقص عدد معلمي القرآن والمدرسين له، ومنذ ذلك الحين تقهقرت معرفة اللغة العربية الأدبية، إذ كانت لا تكاد تدرس. (آجيرون، 1982، صفحة 107) وكانت جمعية العلماء تشرف على التعليم الحر، وكان هناك شبه تعليم ثانوي تشرف عليه الزوايا مثل زاوية الهامل واليلولي وابن الحملاوي ومعهد الحياة في ميزاب. (أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، 2007، صفحة 56)

وفي هذا المجال نشير أن معهد ابن باديس الذي أسسته الجمعية بقسنطينة قد أصبح فرعاً من فروع جامع الزيتونة؛ يحدو حذوه في البرامج والشيوخ، وكانت الامتحانات تُجرى بحضور لجنة زيتونية، أما التعليم العالي فلا وجود له ومن يرغب في مواصلة دروسه يلتحق بجامع الزيتونة، أو جامعات المشرق العربي الأزهر الشريف. (أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، 2007، صفحة 57) تخرج من هذه المدارس عدد من النخب التي سيتم ذكرها في المحور الموالي النخب المعربة.

III. نماذج النخب التي تكونت خلال الفترة (1830 - 1954)

مفهوم النخبة غالبا ما يشير إلى جماعة من الأشخاص الذين حازوا مستوى من التعليم ويتمتعون بمكانة تؤهلهم للتأثير في مجتمعاتهم؛ كما يشير مفهوم النخبة إلى المثقفين الممارسين للفعل الثقافي كالكتابة والتأليف من أدباء وعلماء وغيرهم، أو السياسيين الذين يمتلكون القدرة على صناعة القرار السياسي أو التأثير فيه. أما بالنسبة للموضوع الحالي فإن مفهوم النخبة يشير للنخب الجزائرية التي شكلت المشهد السياسي والثقافي في الفترة الممتدة من بدايات الاحتلال الفرنسي (1830) إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية (1954) لكون تلك الفترة هي التي أسست لنشوء النخب الجزائرية المشكلة للمشهد الحالي المعاصر بمختلف أطيافه السياسية والثقافية.

إن النخب المثقفة التي أنتجت منظومة التعليم لتلك الفترة؛ كانت تعكس مشهداً انقسامياً، من حيث أصولها الاجتماعية وتكوينها الفكري والأيدولوجي وخلفيتها اللغوية، ومن حيث تصورها لنظرية التغيير التي ينبغي سلوكها لتغيير الوضع الاستعماري، فلم يكن موقفها من القضايا المطروحة في الساحة الجزائرية (التجنيد الإجباري، التجنيس، والإدماج، وضع العربية، المرابطة، المشاركة السياسية) موحد بل يمكن أن نلاحظ في هذا الصدد استقطابا واختلافا يصلان إلى حد التناقض. (الطاهر، 2012، صفحة 250)

كما لاحظ "مورال" أنه لا توجد نخبة واحدة في الجزائر وإنما عدة نخب، مقسمة إلى نخبة غير مفرنسة ونخبة مفرنسة، فالنخبة غير المفرنسة تشمل الإقطاعيين (الأسر الدينية والطرقية، والزوايا الدينية وغيرها) العمال المناضلين

(وهم من رواد الحركة الوطنية الجزائرية) والمتقنين بالثقافة العربية (العلماء المصلحون) ويلاحظ "مورال" الخلاف التالي:

نخبة نصف متعلمة أو متوسطة التعليم وهي التي تملك المستوى الدراسي الابتدائي؛ نخبة النخبة وهي التي استطاعت أن تدخل الجامعة من أطباء وصيادلة ومحامون وأساتذة ومهندسون وغيرهم، ويسميهـم "مورال" بالعنصر الذي يمثل البرجوازية الجديدة أو المثقفين الفرنسيين الذين لم يصبحوا فرنسيين بمعنى الكلمة. (حلوش، 2010، صفحة 252) والحقيقة أن النخبة الأولى التي ينتمي إليها العمال المناضلون هي التي قادت التيار الاستقلالي والانفصالي عن فرنسا في الحركة الوطنية الجزائرية، منذ تأسيسها لأول حزب سياسي. في حين نادت النخبة الثانية أو نخبة النخبة كما يسميها "مورال" بالإدماج والتجنيس والمساواة والتسامح والعدالة والمواطنة الفرنسية لأن تكوينها كان فرنسا خالصا، وعاشت في قلب المجتمع الفرنسي بعيدة عن واقعها العربي الإسلامي وهي التي سماها "لوري-بوليو" بنخبة "الجزائريين المتأوربين". (حلوش، 2010، صفحة 253)

هذا المشهد الانقسامى مثله تياران كبيران مارسا دعايتهما وتأثيرهما على مسرح الحياة السياسية والثقافية الجزائرية؛ طيلة الفترة الممتدة بين الحريين؛ تيار فكري متشكل من ذوي التكوين الفرنسي مؤيد للتغريب المجتمع الجزائري بواسطة الثقافة الفرنسية، وهو ما اصطلاح عليه مؤرخو تلك الفترة بكتلة الشبان أو جماعة النخبة أو النخبة الحديثة، في مقابل تيار إصلاحى يناضل لأجل العودة إلى المنابع الإسلامية وتحديد وبعث اللغة والثقافة العربية في الجزائر، وهو ما عرف بكتلة المحافظين أو علماء النخبة التقليدية. (الطاهر، 2012، صفحة 242)

كل هذا يؤكد ولو نسبيا أن كل تطور لاحق في الجزائر لا يمكن أن يفهم من دون الرجوع إلى هذه المرحلة الحيوية من تاريخ الجزائر المعاصرة، ولعل هذا هو ما جعل سعد الله يؤكد قائلا: "تكاد جميع الاتجاهات السياسية والأيدولوجية الموجودة اليوم في الجزائر تعود إلى العشرينات من هذا القرن فقد ظهرت جماعات وأحزاب مختلفة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار كان مقدرا لها أن تقود الحركة الوطنية إلى انفصالها النهائي عن فرنسا سنة (1954)، حقا إن الزعماء قد ماتوا أو غيروا من آرائهم ومناوراتهم ولكن الأيدولوجيات الأساسية التي ظهرت قد بقيت تقريبا هي نفسها إلى الوقت الحاضر". (الطاهر، 2012، الصفحات 250 - 251)

1- النخب الفرنكوفونية

"الفرنكفونية" في مفهومها الواسع تعني مجمل النشاطات المروجة للغة الفرنسية، فضلا عما تحمله هذه اللغة من قيم، وتعني جميع الناطقين بالفرنسية دولا وشعبا في كافة أرجاء العالم. أما "النخب الفرنكوفونية" فيمثلها أولئك الذين تثقفوا بالثقافة الفرنسية وانبهروا بمظاهر الحضارة الفرنسية في جميع سياساتها، وقد أطلقت الصحافة الفرنسية، والدوائر السياسية الفرنسية في الجزائر، وفي فرنسا معا على أفراد هذه الجماعة "جماعة النخبة" تمييزا لها عن سائر أفراد الشعب، وتشجيعا لهم على مواصلة إدماج الجزائر في فرنسا. (الزیدی، 2010، صفحة 57، 144).

وينحدر مصدر الكلمة "الفرنكفونية" من اللفظ الفرنسي "la Francophonie" الذي ابتدعه "أونيزيم ريكو" Onésime Reclus في أثناء تصنيفه لسكان العالم في الجيولوجيا، وعادت الكلمة للظهور في عام

1962 بقلم رجل دولة وشاعر هو "ليبود سنغور" Léopold Senghor، وأخذت هذه الفكرة منحى سياسي - شيئا فشيئا - من خلال إنشاء عدد من المنظمات الفرنسية الدولية التي تقوم بنشر اللغة الفرنسية. (كافي، 2008، صفحة 367)

وتعود الجذور الفكرية الأولى للنخب الثقافية والسياسية المسماة فرنكفونية، إلى سياسة تعليمية انتهجها الاستعمار في الجزائر، وهذا "عبد القادر حلوش" "ينظر إليهم على أنهم أولئك المثقفين أو المتطورين - هي أسماء رافقت كلمة النخبة - من تعلموا في المدارس الفرنسية وتأثروا بالثقافة الأوروبية وانبهروا بمظاهرها وتقاليدها واقتنعوا بعظمة فرنسا وقوتها واعتبروها صاحبة الحق الشرعي في الجزائر. وهذا خلاف النخب التقليدية التي حافظت على انتمائها الحضاري؛ واستمرت في اتصالها مع المدارس العربية الإسلامية". (حلوش، 2010، صفحة 251)

ويعتبرون من الفاعلين الأساسيين في الساحة الجزائرية بداية القرن العشرين، وهم نخبة شبانية أطلق عليها الكتاب الفرنسيون اسم Les jeunes-Algériens، أو Les Jeunes Turcs على خلفية دعوى تأثرهم بأفكار وجهود الشباب التركي في حركة الاتحاد والترقي، كذلك يعرفون على أنهم مجموعة من المثقفين، ولد معظمهم في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، ودرسوا وتخرجوا من المدارس الفرنسية كأساتذة وأطباء ومحامين ومعلمين وصحفيين وحملة شهادات، وإلى جانب اشتغالهم في وظائف مختلفة أولوا اهتماما كبيرا بالمسائل السياسية، لم يكن عددهم كبيراً فعشية الحرب العالمية الأولى؛ كان تعداد الذين تلقوا تكويناً جامعياً أو على الأقل تكويناً ثانوياً لا يتجاوز المائة، ليصل في الفترة التي تلت الحرب إلى بضع مئات (450 في أحسن الأحوال)، ومنذ فترة ما قبل الحرب الأولى كانوا يحلمون كما يقول "أجيريون" بالاندماج في المجتمع الفرنسي ويتنظرون أن يلعبوا دور إيقاظ الأهالي من لامبالاتهم وفتح عيونهم المغلقة منذ ثماني قرون على أنوار الحضارة الفرنسية. (الطاهر، 2012، صفحة 251)

أنتجت النخبة الحداثية (الفرنكفونية) خطاب مساوياً لإصلاحي يرحب بل يلح على اندماج الأمة الجزائرية في الفرنسية، واعتبار الدين مسألة شخصية وقضية ضمير؛ وحول مسألة الاندماج هذه يفترق خطاب هذه النخبة نفسه بين خطاب امتثالي يدعو إلى الاندماج التام للأهالي الجزائريين في الحالة الفرنسية، ولكن دون التخلي عن الأحوال الشخصية، بمعنى الاندماج عن طريق الحقوق لا عن طريق التجنيس. أما أنصار الخطاب الثاني فقد طالبوا بالاندماج التام مع فرنسا من دون التخلي على الأحوال الشخصية الإسلامية، وقد مثل في ثلاثينات وأربعينات القرن الماضي "عباس فرحات" الذي كان يرى أن التجنيس هو اللباس الضيق للحصول على الحقوق السياسية والدخول إلى البرلمان الفرنسي" لكن هؤلاء يقتنعون في الأخير بضرورة تعديل أفكارهم والمطالبة بالاستقلال. (الطاهر، 2012، الصفحات 253 - 254)

وبعد الاستقلال وأحداث (1988) أصبحت هذه النخبة المعادية للغة العربية والمقابلة للتيار الإسلامي والوطني مزيج من اليسار المنحدر من الحزب الشيوعي في الجزائر بتسمياته المختلفة بعد الاستقلال؛ وشريحة من ورثة النخبة الأكثر تأثراً بالمدرسة اللاتينية؛ وبمفهوم النظام الجمهوري الفرنسي؛ وشريحة أخرى مولعة باللغة وأسلوب الحياة الفرنسي، وانتقلت من الفرنكفونية وهي إتقان اللغة الفرنسية والإطلاع على آدابها ومعارفها، إلى "الفرنكوفيلية" وهي

عبارة عن إرادة الخروج من الثقافة الأهلية والاندماج الذهني والسلوكي في ثقافة الآخر من أجل التخلص من التخلف والارتقاء إلى الحداثة والتقدم، ويطلق الخصوم على هذه التشكيلة اسم الفرنكو-شيوعيين، أو الفرنكو-لائكيين، أو حزب فرنسا، أو الفرنكو-بربرين أو الإستصاليين. (خليفة، 2007، صفحة 149)

2- النخب الوطنية:

ونقصد بالنخب الوطنية هنا ذلك التيار الذي كان يطالب بالاستقلال التام عن فرنسا ويعمل على ذلك بكل الوسائل المتاحة؛ هذا التيار بدأ يتشكل ويتبلور متأثراً بالشيوعية تنظيمياً وأفكاراً، كما كان لنضال "الأمير خالد" تأثير في مستوى أفكار مؤسسيه، إلا أن البروز الحقيقي لهذا التيار كان في حدود سنة (1926) عندما أعلن مجموعة من العمال المهاجرين بفرنسا عن تأسيس منظمة سميت نجم شمال إفريقيا. (الطاهر، 2012، الصفحات 269 - 270)

وحسب "محمد حري"؛ فإن هذه المنظمة نشأت في كنف الحزب الشيوعي الفرنسي؛ تنازعها اتجاهان كان الأول منهما يعكس وجهة نظر الحزب الشيوعي الفرنسي (PCF) اتجاه القضية الجزائرية، بحيث يرى استقلال الجزائر خاضعا لتحقيق الاشتراكية في فرنسا، أما الاتجاه الثاني فكان يعتبر الأمة مقولة تحمل قيما ثورية ويعطي الأولوية لمقياس الموقف السياسي حيال الاستعمار لا الانتماء الطبقي. لكن الجناح الثاني بقيادة "مصالي الحاج" هو من سيقود الحركة نحو قيم الجزائر العربية الإسلامية، وستصبح تدريجياً -تحت تأثير "شكيب أرسلان" الذي احتك به مصالي الحاج- مبتعدة أكثر عن إيديولوجية الحركات الشيوعية ثم مناقضة لها فيما بعد، وكثير من عناصرها القياديين لم يكون من أبناء الطبقة البرجوازية أو من الإنتلجنسيا المثقفة، إنما كانوا في أغليبيتهم من العناصر البروليتارية الكادحة ومن جموع الفلاحين ومن المنتمين إلى فئات سوسيو-مهنية بسيطة وهو ما أدى إلى تغلغل الوعي الوطني بينها. (الطاهر، 2012، الصفحات 269 - 270)

3- النخب البربرية:

هم نخبة تضاف إلى النخب الفرنكفونية، وهم البربريون الذين ينكرون أية مشروعية للعربية، باسم بربرية الشعب الجزائري، الداعون إلى الاعتراف باللهجات والثقافات الشعبية، (طالب، 2007، صفحة 233) وهؤلاء خضعوا لنفس التكوين العلمي الذي خضعت له النخب الفرنكفونية.

يرى "صالح بلعيد" أن كلمة "بربر" مصطلح قديم مرتبط بالأمازيغية، ولا تعني (البربار) Barbares التي عند الرومان، فالبربر كلمة اكتسبت قيمتها التاريخية، فتطلق على ساكنة شمال إفريقيا، ولا تحمل أي مضمون تحقيري، وأن الرومان من كانوا يعتنون بها سكان شمال إفريقيا لأنهم لا يتكلمون لغتهم، ولكن كانت لها دلالات أخرى من مثل إطلاقها على الكلام الغامض، وكتابتها بالعربية "البربر"، واليوم أصبحت كلمة "الأمازيغية" أبلغ وأسرع إيصالاً من تعبير (البربر) وهي تحمل مدلول الشعب الذي يريد التحرر. (بلعيد، 2016، الصفحات 27 - 33) لكنها تحولت إلى مصطلح ذو دلالة ثقافية سياسية لما أصبح يطلق على النخب المنادية ببربرية الشعب الجزائري.

ظهور هذه النزعة كحركة ذات طابع سياسي يعود إلى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية (1946/1947) حيث اندفعت جماعة من الشبان الطلبة في المدارس الفرنسية إلى الانضمام إلى الحركة الوطنية من أجل مقاومة الاحتلال الفرنسي، خاصة بعد أحداث 8 ماي 1945، أين أنضم هؤلاء الشباب بكيفية طبيعية وتلقائية إلى حزب الشعب الجزائري وحركة انتصار الحريات الديمقراطية، إلا أن بعضهم كان يخفي إيديولوجية مغايرة لإيديولوجية ومبادئ الحركة الوطنية؛ حيث كانت هذه الفئة تطالب بالبربرية للجزائر؛ مع رفض الانتماء العربي والإسلامي. (نعمان، 2011، الصفحات 63 - 65)

ولم يكونوا متأثرين بالآطروحات الفرنسية الاستعمارية فحسب، والتي لقنوا إياها في المناهج التعليمية الفرنسية؛ بل أيضاً متأثرين إلى حد بعيد بالأيديولوجية الشيوعية التي كانت في أوج قوتها، وكانوا يتلقون الدعم من الحزب الفرنسي الشيوعي، ونتيجة لهذا أصبح لمبادئ وأفكاره وأدبياته رواج في أوساط الشباب المثقف بالثقافة الفرنسية والمنتمة جغرافياً إلى بلاد القبائل؛ يقول بن يوسف بن خدة: "ولهذا ولع الشباب البربري بالماركسية، وكذا بدستور الاتحاد السوفييتي الذي يمجّد نظام الجمهوريات الإسلامية أزرجان، أزنخستان طاجي كستان...، حيث كانت تؤكد أن كل شعب وكل عرق، كان يتمتع بلغته الخاصة، وثقافته الخاصة، ويستفيد من الاستقلالية في تسيير شؤون، وكنا نجد هذه الحجة غالباً عند الأشخاص الذين تحولوا إلى أنصار للنزعة البربرية في الجزائر". (نعمان، 2011، الصفحات 63 - 65)

4- النخب المعربة (التقليدية أو الإصلاحية)

تضم هذه الفئة من النخب كل فرد يحذق اللغة العربية غداة الاستقلال؛ وقد درجت العادة في أن يطلق هؤلاء عليهم تسمية "المعربين"، وبإمكانهم أثناء ممارسة سلطة ثقافية، أن تكون لهم مواقع سلطوية مضادة وفق الظرف السياسي للبلاد. (طالب، 2007، صفحة 125)

وتعتبر تسمية "معربة" هي الأكثر شيوعاً وتداولاً، وكلمة "عربي" لها مدلولات تختلف بحسب الزمان والمكان، فقد بما كانت كلمة عربي تقابلها كلمة "أعجمي" وأحياناً كلمة "رومي"، ومع ظهور الإسلام وشموله كل الجزيرة العربية أصبحت كلمة عربي تعني "المسلم"، وبالنسبة للجزائر تعني صفة "العربي" الإسلام من ناحية وتطلق تأييداً للتعريب اللغوي في التعليم والإدارة من ناحية أخرى، وتعني كذلك تياراً سياسياً وثقافياً واسعاً معادياً في الآن نفسه للتعريب والفرنسة الثقافية وللعصرنة التكنوقراطية. (بلعكي و آخرون، 2013، صفحة 54)؛ وتعني كل النخب المؤيدة للغة العربية كلغة وطنية رسمية، ولغة للتعليم في كل الأطوار دونما أي اعتراض.

هذه النخب لم تكن حالة جزائرية فريدة؛ بل تنتمي إلى تيار ظهر في الربع الأخير من القرن الثامن عشر في كامل أنحاء العالم الإسلامي وتكثف وجوده بعد حملة نابليون على مصر عام (1798)؛ في شكل دعوات وجهود مصلحين مسلمين، من أمثال "جمال الدين الأفغاني" و"محمد عبده" و"محمد رشيد رضا"؛ ينادون بضرورة التجديد والنهضة بالرجوع إلى المصادر الإسلامية الأولى من الكتاب والسنة، وتفعيل العقل والانفتاح على الحضارة الغربية

والاستفادة منها؛ ويمكن اعتبار سنوات العشرينات من القرن العشرين الانطلاقة الحقيقية لهذه الفكرة. (الطاهر، 2012، الصفحات 255 - 256)

وقد دخلت هذه الحركة - حركة التجديد الإسلامية- متأخرة إلى الجزائر، في منطقة قسنطينة عندما جاء المصلح "محمد عبده" لزيارة الجزائر في عام 1903 أين أبدى تأثره من نزعة المحافظة والتشدد الديني؛ لكن الشيخ "ابن باديس" بدأ في عام (1924) مواعظه الإصلاحية وأسس أول مدرسة "مجددة". (آجيرون، 1982، صفحة 114)

وتوسعت الحركة في الجزائر بفضل علماء ثلاثة كانوا قد تلقوا علومهم خارج الجزائر وهم "عبد الحميد بن باديس" و"الطيب العقبي" و"بشير الإبراهيمي"؛ وشرع هؤلاء العلماء بحسب الصيغة التقليدية بإصلاحات في مواجهة الفرنسية، ومن أجل ذلك كانوا يقومون بمكافحة "الحركة المرابطية المتواطئة مع الاستعمار، وتكوين كوادر عربية الثقافة. (آجيرون، 1982، صفحة 140)

ومنذ (1931) كانت جمعية العلماء المسلمين تضم ثلاثة عشر عالما من بينهم "مبارك الملي" و"توفيق المدني" وهما أول من ألف كتاب تاريخ الجزائر بالعربية وقد كتب على غلافه الإسلام ديننا الجزائر وطننا والعربية لغتنا، ولكن هذا الشعور القومي الجزائري كان مرتبطا بحركة النهضة العربية وتوجهات مؤتمر القدس الأول في كانون الأول (1931). وحرص على إنشاء مدارس ابتدائية وبعض المدارس الدينية الحرة التي تدرس فيها العلوم الحديثة باللغة العربية، وهذه المدارس الخاصة التي كانت الإدارة تسمح بها تارة وتغلقها تارة أخرى. وكانت مدارس للوطنية تبعث في التلاميذ عظمة المثل الأعلى "الحياة من أجل الإسلام والجزائر". (آجيرون، 1982، الصفحات 140 - 142)

وبعد الاستقلال وأحداث (1988) أصبحت النخب المعربة ممثلة في "التيار الإسلامي" الذي خرج من الإرهاصات الأولى للحركة الإسلامية قديمة العهد في الجزائر، ويطلق عليها البعض ما يسمى التيار الوطني التقليدي أو ما يطلق عليه خصومه تيار الثوابت الوطنية، وتطلق بعض الكتابات الصحفية الجزائرية على هذه التشكيلة من المواقف والاتجاهات "أصولي، ظلامي إسلامي، قرون أوسطي". (خليفة، 2007، صفحة 147)

5- مالك بن نبي

يمثل مالك بن نبي مدرسة فكرية مستقلة بين المدارس الفكرية التي عرفتها الجزائر منذ الحرب العالمية الأولى، فلا هو من تيار المدرسة الاستعمارية التي نشأ فيها أمثاله وأخذوا علمها ولغتها، أي النخبة الاندماجية أو النخبة الإسلامية التي رضيت بالوظيفة بعد التخرج واكتفت بما تطعمها به الإدارة الفرنسية، ولا هو من تيار المدرسة السياسية التي أنشأها "الأمير خالد" ثم نجم الشمال الإفريقي ثم حزب الشعب، إذا كان "ابن نبي" كثير النقد لهذه المدرسة ولا سيما أثناء زعامة "مصالي الحاج" لها، ولم يكن "ابن نبي" من التيار السياسي الآخر الذي تنبأه الدكتور "بن جلول" و"فرحات عباس" لأن هؤلاء كانوا في نظره فوقانيين ومنحرفين، ومن ثمة كان أيضا كثير النقد لهم، ورغم أنه كان يحس بالطبيعة أنه من تلاميذ مدرسة ابن باديس فإنه كان أيضاً بعيداً عنهم لضيق مجالهم وتحليلهم عن

دورهم الأساسي في نظره، ثم لسداجتهم، وهكذا كان "ابن نبي" كثير النقد للمدرسة الإصلاحية أيضاً، ولذلك قلنا أنه كان مستقل الفكر ويمثل مدرسة لوحده. (أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، 1998، صفحة 211)

بعد الاستقلال أصبح إتقان لغة السلطة الكولنيالية السابقة؛ في أفريقيا ما بعد الاستعمار يمثل رأساً ثقافياً وسمّة للموقع الطبقي للفرد، لأن هذه القدرة ترفع من شأن المتكلم ليصنف ضمن النخبة الحاكمة. وهذا يذكر بنظرية "بورديو" في تطور الأسواق اللغوية. إن العلائق السلمية بين مختلف التنوعات اللغوية أو اللغات هي انعكاس لعلائق السيطرة والقوى التي نمت تاريخياً بين المتكلمين وقد اكتسبت اللغات الكولنيالية مشروعية نتيجة الغزو الاستعماري، وعززت سيطرتها وهيمنت فيما بعد، وقد أدى هذا الوضع في كثير من الأحيان إلى سياسة لفائدة النخبة المغلقة على اللغة المهيمنة ومصالحها وإقصاء الجماهير الشعبية عن طريق هذه السياسة اللغوية. (الفهري، 2013، صفحة 119)

ليصبح بذلك المثقفين والسياسيين الفرنكفونيين يقودون الأجهزة الحساسة في الدولة التي هي مصدر قوة لها، كالأجهزة السياسية والاقتصادية، بينما المعربين أغلقت أمامهم تلك المناصب.

الخاتمة:

كانت السياسة التعليمية الفرنسية، والتعليم العربي الإسلامي الحر -على قلته- في الفترة الممتدة (1830 - 1954) عامل أساسي في تشكيل النخب الجزائرية الثقافية والسياسية؛ بإيديولوجياتها ومذاهبها وقناعاتها ومعتقداتها وأرائها ومواقفها المختلفة والمتناقضة -أحياناً- اتجاه القضايا المتصلة بالحياة السياسية والثقافية والاجتماعية الجزائرية؛ سواء في تلك الحقبة، أو إبان الثورة التحريرية، أو بعد الاستقلال (1962) وإلى يومنا هذا، إذ يكاد من غير الممكن فهم ما يحدث الآن من صراع أو توافق بين النخب الجزائرية من دون الرجوع إلى حيثيات ولادة تلك النخب، فقد كان التعليم ببرامجه ومناهجه هو السبب والعامل المباشر في تشكيل النخب الجزائرية على اختلافها.

لقد عملت السياسة التعليمية الفرنسية على تكوين نخبة موالية لها؛ من أبناء الأهالي يكونون وسطاء بينهم وبين عامة الشعب؛ مهمتهم الترويج للثقافة الفرنسية وتبرير الوجود الاستعماري؛ لذلك كان من أولوياتها تكوين المدرسين وهم أساتذة فرنسيين وأهالي يتلقون تعليمًا خاصًا متكيفًا مع تربية الأهالي وأنشأت لذلك معاهد خاصة بهم. وأعطت للمدرسين مكانة معتبرة وجعلتهم موضع ثقة.

ومن بين المدارس التي أسستها فرنسا؛ وكان لها دور بارز في صناعة النخب الجزائرية نجد ما يسمى "بالمدراس العربية الفرنسية" لكنها لم تلقى نجاحاً، لأن أولياء التلاميذ المسلمين ظلوا زمناً طويلاً متمردين في إرسال أولادهم إلى المدارس الفرنسية ولم يتغير ذلك إلا بعد الحرب العالمية الأولى؛ ثم تبعه مشروع "المدراس العربية الإسلامية" أو (المدراس الشرعية) ليصبح المتخرجون منها همزة الوصل بين المحتلين والجزائريين، تخرجت منها فئة من النخب أخذت من الثقافة العربية الإسلامية والفرنسية.

كما كان لها دور في تكوين عدد من النخب التي كان لها دور هي الأخرى في تشكيل الحركة الوطنية؛ لكن فرنسا أدركت خطورتها ما جعلها تتراجع عنها وحولتها إلى مدارس "التعليم الثانوي العربي الرسمي" الذي ساهم في تكوين عدد من النخب كما كانت السياسة التعليمية الفرنسية تخصص منحة لنخبة من التعليم الثانوي. تهيئها

لصناعة نخبة تساهم في خلق ثقافة الرضا والقبول بالوجود الفرنسي ونشر قيمه الثقافية. كما كانت الجامعة والبحث هما الأساس الإيديولوجي للحضور الفرنسي وجهاز للتحكم، وتخرج منها بعض النخب التي ثبت ولاءها لفرنسا. أما التعليم العربي الإسلامي الحر كان مضطهدا في الجزائر؛ قائما على كاهل الشعب، ولا يتعدى التعليم الابتدائي، وله برنامج بسيط يشمل قواعد الدين وقواعد اللغة وبعض الجغرافيا والتاريخ الإسلامي؛ ولم يكن مقبولا باسم سياسة الدمج ثم العلمنة، وكانت جمعية العلماء تشرف على التعليم الحر، وكان هناك شبه تعليم ثانوي تشرف عليه الزوايا، ومع ذلك كان لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين دور في تخريج نخب عربية إسلامية تنادي بالهوية العربية الإسلامية للشعب الجزائري.

فالنخبة المثقفة التي أنتجتها منظومة التعليم لتلك الفترة كانت تعكس مشهداً انقسامياً من حيث أصولها الاجتماعية وتكوينها الفكري والأيديولوجي؛ النخب "الفرنكفونية" أو الحداثية وهم من تخرجوا من المدارس الفرنسية وتثقفوا بالثقافة الفرنسية؛ وكانوا من الفاعلين الأساسيين في الساحة الجزائرية بداية القرن العشرين، وأنتجت خطاب مساوياً إصلاحياً يرحب باندماج الأمة الجزائرية في الأمة الفرنسية. والنخب الوطنية التي تمثل التيار الذي كان يطالب بالاستقلال التام عن فرنسا -رغم ارتياده للمدارس الفرنسية- ويعمل من أجل ذلك بكل الوسائل المتاحة؛ هذا التيار كان متأثراً بالشيوعية تنظيمياً وأفكاراً، كما كان لنضال "الأمير خالد" تأثير في مستوى أفكار مؤسسيه. أما البربريون تكونوا في المدارس الفرنسية فينكرون أية مشروعية للعربية، باسم بربرية الشعب الجزائري، ويدعون للاعتراف باللهجات والثقافات الشعبية كما أنهم متأثرين إلى حد بعيد بالأيديولوجية الشيوعية التي كانت في أوج قوتها.

والنخب المعربة التي تضم هذه الفئة من النخب كل من يجيد اللغة العربية أثناء الاستعمار أو غداة الاستقلال؛ تنتمي هذه النخب إلى تيار ظهر في الربع الأخير من القرن الثامن عشر في كامل أنحاء العالم الإسلامي؛ متأثرين بدعوات وجهود مصلحين مسلمين، من أمثال "جمال الدين الأفغاني" و"محمد عبده" و"محمد رشيد رضا"؛ لكن الشيخ "ابن باديس" رائد هذه النخبة بالنسبة للجزائر بدأ في عام (1924) نشاطه الإصلاحية؛ وبعد الاستقلال وأحداث (1988) أصبحت النخب المعربة ممثلة في "التيار الإسلامي" تيار الثوابت الوطنية. ويمثل مالك بن نبي الذي تخرج من المدارس الفرنسية الإسلامية، مدرسة فكرية مستقلة بين المدارس الفكرية التي عرفت الجزائر إذا كان "أبن نبي" كثير النقد لكل النخب الجزائرية الإسلامية أو الفرنكفونية على حد سواء.

قائمة المراجع:

1. أبو القاسم، سعد الله، (1998)، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزائر، دار المغرب الإسلامي.
2. أبو القاسم، سعد الله، (2007)، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزائر، دار البصائر.
3. آجيرون، شارل، روبر، (1982)، تاريخ الجزائر المعاصر، باريس، بيروت، منشورات عويدات.
4. بلعكي، أحمد، وآخرون، (2013)، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية.

5. بلعيد، صالح، (2016)، هل تشتعل حرب الحروف، الجزائر، منشورات مخبر الممارسات اللغوية.
6. بن داود، أحمد، (2016/2017)، المقاومة الثقافية للاستعمار الفرنسي في كل من الجزائر والمغرب من خلال التعليم (1920-1954)، جامعة أحمد بن بلة وهران، الجزائر.
7. بن قينة، عبد القادر، (2000)، المشكلة الثقافية في الجزائر، الجزائر، دار أسامة للنشر والتوزيع.
8. حلوش، عبد، القادر، (2010)، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر.
9. دودو، أبو العيد، (1975)، الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان (1830 - 1855)، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
10. ربول، أوليفييه، (2002)، لغة التربية، (ترجمة، عمر، أوكان)، المغرب، إفريقيا الشرق.
11. ريسليير، كميل، (2016)، السياسة الثقافية الفرنسية بالجزائر أهدافها حدودها (1830 - 19962)، (ترجمة، نذير، طيار) دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني.
12. الزبيدي، وليد، (2010)، السياسة الفرنكفونية والوطن العربي، الأردن، دار أسامة للنشر والتوزيع.
13. سعود، الطاهر، (2012)، الحركات الإسلامية في الجزائر، الإمارات العربية المتحدة، المسبار للدراسات والبحوث.
14. سفيان، لوصيف، (2014)، السياسة الثقافية في الجزائر الأيديولوجية والممارسة، لبنان، منتدى المعارف.
15. طالب، خولة، الإبراهيمي، (2007)، الجزائريون والمسألة اللغوية، (ترجمة، محمد، يحياتن)، الجزائر، دار الحكمة.
16. الطاهر، سعود، (2012)، الحركات الإسلامية في الجزائر، الإمارات العربية المتحدة، المسبار للدراسات والبحوث.
17. الفهري، عبد القادر، الفاسي، (2013)، السياسة اللغوية في البلاد العربية، لبنان، دار الكتاب الجديدة المتحدة.
18. كالفلي، جان، لويس، (2008)، حرب اللغات والسياسة اللغوية، (ترجمة، حسن، حمزة)، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية.
19. نعمان، أحمد، بوقرة، (2011)، فرنسا والأطروحة البربرية، الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر.
20. ولد خليفة، محمد العربي، (2007)، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، الجزائر، منشورات تالة.